



الحدائثُ العَرَبِيَّةُ وأزمنةُ الإنسانِ المُعاصِرِ

الطاهر محمد الشريف*

مُقَدِّمة

استطاعت الحضارة العَرَبِيَّةُ أَنْ تنتج لنا كل مُقَوِّمات الرِّفاهية، خاصَّة بعد تطويرها للتَّقنية ونُظْم الإدارة والمُؤسَّسات الَّتِي سهَّلت الخدمات، وجعلت التَّقنية تُؤمِّن تلك الرِّفاهية، لكنَّها مع ذلك لم تستطع أَنْ تخفي وجهها البشع والمُدْمِر، الَّذِي يبرز في حركة الإمبرياليَّة الَّتِي دامت خلال أربعة قرون انقضت فيها شعوب وأعراف بأكملها، ودمَّرت ثقافات إنسانيَّة ومحتها من على وجه الأرض، ناهيك عن تلويث الطَّبيعة، والفتك بالنَّبات، والحيوان، والأشجار، وما يعود تهديده على الإنسان. وحتى التَّقنية الَّتِي أسعدت الإنسان جعلته بائسًا، وهي الآن تريد أَنْ تصنَّعه من خلال مخابر بيولوجيَّة عالية التَّقنية.

المفارقة تزدادُ حدَّةً عندما يُنشئ الإنسان حضارة من صنَّع يديه لتقتله، فالإنسان الغربيُّ أنتج حضارة، ثمَّ انتبه إلى خطورة ما أنتج دون أن يملك قُدرةً على تجاوز ما أنتج؛ إذ إنَّ بداية التَّأزُّم كان مع فكرة التَّقدُّم، ففيها أجمل الإنسان الغربيُّ قواه، وعقد العزم بها على المُضِي قُدِّمًا، فقد جمع بين قوَّة العقل والإرادة؛ كي يتَّجه

* أستاذ محاضر في فلسفة الحضارة والدين، في جامعة باتنا 1 الجزائر.

صوب تحقيق السعادة آملاً في العلم والتّقنية أن تُحقّق له السّعادة، لكنّه لم يكن يعلم أن سعيه سيؤول به إلى غير مأموله، حيث تحطّم مبتغاه أمام حريين مُدْمَرَتين؛ الأولى: قضى فيها نحو قرابة 20 مليوناً، والأخرى: قرابة 50 مليوناً، وأنتج أسلحةً فتاكَةً كالقنابل النّويّة، والجرثوميّة، والبيولوجيّة، والكيميائيّة، وكلّها من رزايا تقدّم العلم والتّقنية.

أمام هذه المفارقة، أخذ الفلاسفة الغربيّون يمارسون النّقد لحضارتهم متبھين إلى مظاهر المآزق مختلفين في تشخيصه، حائرين أمام البديل لذلك المآزق. فإدغار موران (Edgar Morin 1921 م) الذي أقرّ في كتابه «ثقافة الغرب وبربريّة» أن لكل حضارة ثقافتها وبربريّتها، على وفق فهم مُركّب، يسعى من خلاله إلى تجاوز بربريّة الغرب، ولكن المشكلة تكمن في سؤال جوهريّ، هل بربريّة جزء جوهريّ في الحضارة الغربيّة أم أنّها هامشيّة طارئة؟ وهذا السّؤال النّقديّ هو عينه ما سنعمل على ضبطه أكثر ليتلاءم مع مقالنا هذا، ومفاده:

هل أزمة الإنسان الغربيّ هي في جوهر حضارته أم أنّها عرضيّة؟
وهذا السّؤال يمتدّ إلى أسئلةٍ أُخرى: ما هذه الأزمة؟
وهل تمسّ ذات الإنسان أم محيطه؟

هذه الأسئلة تستوجب منهجاً؛ كي يُسدّد طريقنا نحو الإجابة عنها، وهو منهج النّمادج المعرفيّة، وهو منهج يهتمّ بالبنى الفكرية والمعرفيّة، وعلاقتها بالواقع الاجتماعيّ، وهنا تظهر كفاءته، فموضوعنا يتمحور حول فكر أنتج حضارة؛ أي علاقة بين نظام معرفيٍّ ما وسياقه الحضاريّ. لهذا، وجب النّظر فيه؛ كي ندرك مكن التّأزم، هل في جوهره أم في ظاهره، وكذلك تحليلات الأزمة التي أنتجها الغرب ذاته، فهي خاضعة لبنى فكرية، وتعكس واقعاً اجتماعياً ككلّ، والحال نفسه بالنسبة إلى النّقد الذي يوجّهه هذا المقال للحداثة الغربيّة. ويعمل المنهج على وفق آليتين؛ الأولى: تتمثّل في الرّصد، حيث يجمع المُحدّثات الدّالة على الظاهرة، أو الواقعة، أو المنظومة الفكرية والأخلاقيّة والسياسيّة، يُجرّد منها الأنموذج المخفي خلفها، وأخيراً، يمارس النّقد، وهو ما سينجم عنه خطّة المقال الآتية:

أولاً: رصد المصطلحات الدّالة على أزمة الإنسان الغربيّ
ثانياً: انفصال الإنسان عن الإله في الثّقافة الغربيّة
ثالثاً: الإنسان الغربيّ المعاصر بين تيه الزمن، وطغيان على المكان

رابعاً: المدخل القرآني لتشخيص أزمة الإنسان في الحضارة الغربيّة.

رصد المصطلحات الدالّة على أزمة الإنسان الغربيّ

اللغة هي لسان حال المجتمع؛ تنقل أخباره، وتحمل أفكاره وراءه. لهذا؛ هي تتغيّر بحسب الزّمان، والحال، والمكان؛ حيث نجد أنّ عبارات كان لها حضور قويّ في زمن، تتلاشى في زمن آخر، بحسب المتغيّرات، وعبارات أخرى يتكثّف استعمالها في زمن دون آخر؛ ما يمنحنا إمكان التعرّف إلى الوضع الاجتماعيّ بوساطة استعمالات اللّغة خاصّة عند نخبة العالمة، أو ما يُصطلح عليه بالثقافة العالمة، حيث ستحدّد لنا العبارات الأوسع انتشاراً مُعطياتٍ أوليّة يمكن تحليلها بغرض الوصول إلى التشخيص المناسب لحالة الأزمة، ثمّ المرور إلى الحلّ الأنسب لها.

أولّ عبارة تستوقفني هنا هي عبارة أزمة *la crise* التي عبّر عنها كل من زغمونت باومان (1925 Zygmunt Bauman - 2017) بأنّها تعني حالة لا يقين، وهو ما فضّله بقوله: «أعتقد أنّ فكرة الأزمة تتّجه اليوم إلى العودة إلى جذورها الطّيبة، حيث ظهر هذا المصطلح ليشير إلى لحظة يكون فيها مستقبل المريض في يد قدر مجهول... فإذا تحدّثنا عن أزمة ما، بما في ذلك الأزمة الاقتصادية، فإننا نُعبّر عن شعور باللايقين، عن شعور بجهلنا بمصير الأمور»¹. ففكرة الأزمة، انتقلت من مجال الطّب، إلى مجال الاقتصاد، إلى كلّ المجالات؛ لتصبح لها مُحدّدين، هما: حالة اللايقين والمصير المجهول، وهو ما يعني أنّ الحداثة الغربيّة التي بشرت بمصير مشرق للإنسان انتهت إلى مصير مجهول، وحالة لا يقين بمآلات الأمور.

الاتّجاه نفسه تقريباً نجده عند الفيلسوف الفرنسيّ إدغار موران في كتابه «في مفهوم الأزمة»، وهذا في قوله: «في حين أنّ كلمة أزمة كما نفهمها اليوم، تعني... صعوبة التشخيص. في المجمال، تأتي الأزمة هنا بغياب اليقين»². وبذلك، يضيف موران إلى باومان مسألة العجز عن التشخيص؛ ليصبح مدلول الأزمة يتكوّن من ثلاثة حدود، وهي: العجز عن التشخيص - اللايقين - والمآل المجهول، وتلك

1- زيفمونت باومان وكارلو بوردوني، حالة الأزمة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، بيروت، 2018م، ص 15.

2- إدغار موران، في مفهوم الأزمة، ترجمة: بديعة بوليلة، دار السّاقى، بيروت، 2018م، ص 12.

الحدود تستدعي منا تحليل المصطلحات الدالة على الأزمة، قصد تشخيصها، ثم تحديد مآلها، على وفق مرجعية يقينية، ولأَسبقى دائماً في دائرة الأزمة، ولن نخرج منها.

كون استخدام مصطلح الأزمة أصبح شائعاً في الغرب ابتداءً من الأزمة الاقتصادية لسنة 1929م، فإن ذلك التاريخ دلالة مهمة، حيث إنها لحظة فارقة، بدأ معها الشعور بالأزمة قوياً، وهنا بدأت تتجمع المصطلحات النقدية والاحتجاجية الدالة على حالة الأزمة مشكلات مدارس فلسفية؛ كالوجودية، ومدرسة فرنكفورت، وفلاسفة الاختلاف، أو ما بعد الحداثة، وغيرها. وعليه، فالتاريخ المذكور أعلاه هو تعبير عن تحوُّل من حالة التفاوض التي رسمها عصر التنوير في القرن الثامن عشر، إلى حالة من اللائيقين والتشاؤم إزاء المستقبل.

وهنا، يمكن أن نقسم المصطلحات إلى نوعين؛ الأول: يُحدِّد أزمة الإنسان والآخر: يُحدِّد فيها أزمة محيطه، كون محيطه هو تهديد له.

الاغتراب بوصفه جوهر أزمة الإنسان الغربي المعاصر

إنَّ أول مصطلح سنبدأ بتحليله هو الاغتراب الذي ظهر مع هيغل، وماركس، وفيورباخ، وشهرته كانت مع الفلسفة الوجودية، ومدرسة فرنكفورت، حيث عبّر عن أزمة فلسفة الذات في الفلسفة الغربية، وعودة المصطلح بعد الحرب العالمية الثانية له دلالة عميقة على تأزم الذات في الحضارة الغربية. وهنا، وجب تعريف المصطلح أولاً قبل تحديد مكانته بين تلك المعجمية الوصفية لأزمة الإنسان الغربي.

قد عرفه إيريك فروم استناداً إلى فلسفة هيغل وماركس، بقوله: «إنَّ الاغتراب بالنسبة إلى هيغل وماركس يعني أنَّ الشخص قد أضع نفسه، وكفَّ عن تصوُّرها كمركز لنشاطه. فالمرء يمتلك الكثير، ويستخدم الكثير لكن كينونته ضئيلة»¹. فالاغتراب وفقاً لهذا التحديد دلالة على علاقة بين الذات وموضوعها. وهنا، يستعين فروم ببعض مفاهيم التحليل النفسي، خاصةً منها مفهوم التحويل، الذي يعني تحويل صفات الذات إلى الآخر؛ ليكون الإنسان في غربة مع ذاته، التي تفقد مكانتها أمام الأشياء التي تصنعها وهنا تتسافل تلك الذات.

يضيف عبد الوهاب المسيري إلى إيريك فروم تحديداً مهماً في قوله: «أمَّا

1- إيريك فروم، كينونة الإنسان، ترجمة: محمد حبيب، دار الحوار، اللاذقية، 2013م، ص 28.

في الفلسفة، فإنَّ الكلمة (اغتراب) تشير إلى غربة الإنسان عن جوهره، وتنزله من المقام الَّذِي ينبغي أن يكون فيه، كما تشير إلى عدم التوافق بين الماهية والوجود¹. وعدم التوافق يرجع إلى أنَّ الذات تفقد هويتها أمام موضوعها من جهة، ولكنَّ أهمَّ شيء في هذا التعريف هو جوهر الإنسان، حيث يصبح أنه لا إنسان؛ أي يفقد إنسانيته.

لقد عمل محمد أبو القاسم حاج حمد على التفريق بين الاغتراب والاستلاب، فالاغتراب هو حالة من الانفصام يؤدي إلى اختلال وجودي بين الذات المضطربة، وواقعها اليومي والحضاري². وهنا، يؤكد على معنى إضافي، وهو حالة الانفصام مع الواقع الحضاري ككل، ومن ثمَّ؛ فأزمة الاغتراب هي أزمة حضارية في جوهرها، فالغرب أنتج حضارة تجعل الذات البشرية فيها تشعر بالانفصال الَّذِي يتمظهر في أطروحة هيغل، وماركس، وحتى كولن ولسن في كتابه اللأمتمي. وأما الاستلاب فهو بحسب حاج حمد: «يعني جبرية العلاقة من طرفٍ أحاديٍّ يستحوذ نهائيًا على الطرف الآخر»³. ومعنى ذلك أنَّ الاغتراب شعور الذات أمام الآخر، أما الاستلاب فهو يأتي من الآخر، أو الموضوع إلى الذات، وأما العلاقة الجبرية فهي ناتجة من وضع حضاري، وهذا الأخير ناتج من رؤية وجودية للعالم، والكون، والحياة.

وعليه، فكلاهما الاستلاب، والاغتراب ناتجان من رؤية محدَّدة للعالم أدت إلى حالة من تحويل خصائص الذات إلى الموضوع، فينتج منه انفصال للعالم عن الذات، من جهة، ومن جهة ثانية غربة عن الذات؛ أي يصبح الإنسان غريبًا عن ذاته، ولا يعرف جوهره، والاغتراب في ذات الإنسان شعور بالضعف أمام قوى العالم الخارجي؛ كالتقنية، والرأسمالية، والاشتراكية، وعملية نظم المجتمع، وغيرها. بناءً على التعريفات السابقة، فإنَّ العنصر المنتج للاغتراب هو الرؤية الكونية للحضارة، والمحيط الحضاري، وأما مضمون الاغتراب فهو حالة تحويل صفات الذات إلى الموضوع، وحالة انفصال وتغاير بين الماهية والوجود، وفقدان القيمة

1- عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، 2002م، ص142.

2- محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، دار ابن حزم، بيروت، 1996م، ص151.

3- المصدر نفسه، ص152.

الوجودية للذات. وعليه، يصبح الاغتراب في طليعة الاصطلاحات المُعبّرة عن أزمة الإنسان الغربي؛ بل هو المصطلح الجامع لغيره.

كون الاغتراب مُصطلحاً جامعاً لكون تأسيسه على الرؤية الكونية لتلك الحضارة، فهو أهمّ تجلٍ لها؛ لأنه انعكاس لتلك العلاقة بين الذات والموضوع؛ ما يؤكد أنه هو التحقّق الفعلي لها؛ لأنّ الرؤية الكونية تسعى إلى البحث عن موقع للإنسان ضمن نظام الوجود، فتخلق له أيديولوجيا؛ أي معيارية فكرية يُقوم بها الأشياء، ويوتوبيا يطمح بها إلى تحقيق تلك الأيديولوجيا، وإنسان كامل يكون معياراً للذات الكاملة، وهو ما سيؤول إلى ربط الذات بالعالم، وهنا يشعر الإنسان بالاغتراب؛ بمعنى أنّ المشكلة تكون جوهرية داخل الرؤية الكونية ذاتها.

كون الاغتراب أكبر تجلٍ لأزمة الإنسان الغربي، فإنّه سيولد العديد من الأزمات الأخرى التي ستحددها الكثير من المصطلحات منها: التوتن (من الوثنية) والتسلع، والتشيؤ والعقل الأداتي، والأخير في مفهومه هو العقل الذي يفكر في وسائل السيطرة، ولا يفكر في غايته ما إذا كانت إنسانية أم لا، وهو عند المُسيطر يفكر كيف يحافظ على سيطرته، وهو عند المُسيطر عليه هو عقل تسويغ للأمر الواقع؛ فهو يحافظ على نظام السيطرة، وهذا العقل هو من سيخلق الاستلاب بالمعنى الذي حدده محمد أبو القاسم حاج حمد، وهو قوى خارجية تسلب الإنسان إمكانياته وتخضعه لعلاقة جبرية، وهو عينه ما عبّر عنه هيربرت ماركوز قائلاً عن العقل الأداتي: «فالتبعية الشخصية تبعية العبد للسيد، والقن لصاحب القصر، والوالي للملك، إلخ...، يحلّ محلّها شيئاً فشيئاً نوع آخر من التبعية: التبعية التي تخضع المرء ل نظام أشياء موضوعي (القوانين الاقتصادية، السوق، إلخ...) وإن كان نظام الأشياء الموضوعي من صنع السيطرة... فإنّ السيطرة تعتمد الآن على درجة أكبر من العقلانية»¹؛ أي أنّ العملية الإنتاجية للمجتمع البرجوازي تخلق نظاماً من الاستلابات التي تحول الإنسان إلى مجرد أداة ضمن آلة كبيرة، وهو ما سيخلق ما يُسميه ماركوز بالإنسان ذي البعد الواحد، وهو إنسان يتمّ تنميته ضمن بُعد واحد تصنعه القوى المسيطرة، وهو أهمّ تجليات الاغتراب والاستلاب.

عمل العقل الأداتي في إفقاد الذات هويّتها واغترابها سيعمل على إسقاطها إلى

1- هاربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت،

الهوة السحيفة والمتمثلة في التوثن والتسلع والتشيعى، فأما التوثن فيفسره إيريك فروم من خلال عملية التحويل وهو يأتي ضمن تحليله للاغتراب، وهو يرى أن التوثن هو عكس العمل التحريري الذي أتت به حركة النبوة، فالوثنية هي أن «يحول المرء نشاطاته الخاصة، أو كل تجاربه- من قدرته على الحب، أو قدرته على التفكير- إلى موضوع خارج نفسه قد يكون الموضوع شخصاً، أو شيئاً مصنوعاً من الخشب، أو الحجر»¹، وغيرها؛ ما يؤكد أن الاغتراب نتيجة لإنتاج أوثان يخضع لها الإنسان المعاصر، وهي السلع التي ينتجها، حيث تحول كل شيء إلى سلعة وشيء، فيتم بيع لاعبي كرة القدم وشرايهم، وبيع الجنس وشرايهم الذي كانت له قداسة بحكم حفاظه على الحياة الإنسانية؛ ليتحول إلى سلعة كما هو حال البغي وأفلام الخلاعة، وغيرها. وهنا يتسلع كل شيء، ويفقد الإنسان وجوده، وتهوى قيمته البشرية.

انفصال الإنسان عن الإله في الثقافة الغربية

في نشأته الأولى، كان يريد النموذج المعرفي المنتج للحدثا الغربية، رفع أي سلطة عن الإنسان، وهنا سعى إلى التخلص من سلطة الكنيسة التي أثقلت كاهل الإنسان، وزادت في قصوره وحرمة من تحقيق إمكاناته، ثم أتجه نحو إنتاج ما يُسميه بالعلمانية، التي تفهم العالم في إطار مركزيتين هما: مركزية الإنسان، أو مركزية الطبيعة، مع تهميش للإله، أو الغائه، لكن ترتب عن ذلك ليس إحياء الإنسان؛ بل موته.

منذ أن أعلنت فرنسا حقها الوراثي في مدينة/الدولة نابولي، نشبت حرب عمّت أوروبا. بدأت أحداث تلك الحرب في العام 1494م، وامتدت إلى غاية العام 1559م، ولن تتمكن من سرد ما جرى في تلك الحرب الطويلة، لكن ما يهمنا هي نتائج تلك الحرب، والتي أحسبها مثل عملية جراحية، أدت إلى تغييرات جذرية في تطوّر الحضارة الغربية، نتجت تطوراتها ظهور نخبة برجوازية في مواجهة الإقطاع، سعت إلى تغيير نظام الولاءات، حيث انتقل الولاء من مؤسسة الكنيسة إلى مؤسسة بديلة عنها وهي الدولة القومية، ومن تعاليم المسيحية إلى الثقافة الإنسانية التي أحييت تراث اليونان، وهنا سيتغير مجرى الذوق والعقل والعواطف من أدبيات

1- إيريك فروم، كينونة الإنسان، مصدر سابق، ص 27.

المسيحية إلى أدبيات إنسانية، وأكملت المشروع البروتستانتي بتفكيك تماسك المسيحية. ومن هنا، بدأت تنقطع علاقة الأرض بالسّماء، ولم يعد الإنسان يفكر في عالم الملكوت؛ بل بعالم الملك المنفصل، وهو عينه ما يسمّى بالعلمانية التي قطعت الدنيا عن الآخرة.

عندما ظهرت الأسس الأولى للفلسفة الحديثة خاصّة مع ديكارت، وفرنسيس بيكون، بدأت تتحدّد علاقيتين: الأولى مع المعرفة، والأخرى مع الطّبيعة، وكلاهما تحكمهما القوّة، فالمعرفة عند بيكون هي القوّة، والسّيّطرة، والاستطاعة. وعند ديكارت كذلك، ويضيف الأخير بأننا أسياد الطّبيعة، وهنا أصبحت العلاقة مع الطّبيعة علاقة سيّد.

انتقلت عمليّة التسيد من الطّبيعة إلى الإنسان، وهو ما رصدته مدرسة فرنكفورت خاصّة مع الكتاب التأسيسي لها المُتمثّل في «جدل التنوير»، فمع التنوير انتقلت السّيّطرة من الطّبيعة الكونيّة إلى الطّبيعة الإنسانيّة، وهذا لعدة اعتبارات أهمها هو سعي العلوم الإنسانيّة إلى تقليد العلوم الطبيعية، لهذا تم التعامل مع الإنسان كمادة¹، وكذلك انتصار الفلسفة الطبيعيّة النيوتنيّة على فلسفة ديكارت، والتي صورت العالم آلة ميكانيّة يفقد فيها الإنسان هويته ويتحول إلى مجرد مادة استعمالية. وقد تفاقم هذا الأمر بعد الثورة الصناعية، وبالرغم من جهود الحركة الرومانسيّة لإضفاء المعنى على عالم الإنسان إلا أنها زادت بعدا عن ربه.

استمرت العلمانية في صنع ولاءات للإنسان المعاصر غير الولاء لله الواحد، صانعةً بذلك آلهة بديلة كثيرة، حتى جاء موعد ظهور نيتشه عندما أعرب عن موت الإله، ثم جاء بعده ميشال فوكو مقرا بموت الإنسان، وهنا يجب أن نستحضر عبارة لإريك فروم، عندما يقول: «في القرن التاسع عشر، استطاع المرء أن يعلن «لقد مات الإله»، وفي القرن العشرين، ينبغي أن يقول المرء إن الإنسان قد مات. اليوم يبدو هذا القول المأثور صحيحا: لقد مات الإنسان، وتحيا الأشياء»². وهذا الكلام يؤكّد أن عمليّة قطع العلاقة بين الله والإنسان ستؤول بالضرورة إلى تفكيك الإنسان وخسران ذاته.

1- ماكس هوركهايمر وثيودور ف. أدرنو: جدل التنوير، ترجمة: جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2003م.

2- إيريك فروم، كينونة الإنسان، مصدر سابق، ص 30.

بالعودة إلى نيتشه، الذي أراد أن يعلي من الحياة ويقضي على أي قيم متعالية، هنا أراد إماتة الإله بافترض أنه هو أساس أي قيم مُتعالية على الحياة، وقد عبر عن ذلك جيل دلوز شارحا: «الإله يخنق نفسه من الشفقة: كل شيء يجري كما لو كانت الحياة الارتكاسية تدخل حلقه. يُميت الإنسان الارتكاسي الإله لأنه لم يعد يتحمل شفقتة. لم يعد يتحمل الإنسان الارتكاسي... يريد أن يكون لوحده مع انتصاره، ومع قواه وحدها. يضع نفسه مكان الإله». وهنا يريد نيتشه أن يضع الإنسان الذي استرجع إرادة القوة مكان الإله الذي زرع الشفقة في العالم لأنه لم يعد بحاجة إلى الشفقة، وهنا سيقطع نيتشه الوصل ليس مع الله فقط وليس مع عالم الملكوت وقيمه السامية، بل سيتعدى إلى قطع الصلة ذاتها، وبتعبير اهل العرفان قطع الباب الدال على الله. فهل أحيا نيتشه الإنسان؟

نيتشه هو أول من أمات الإنسان عندما أعلن عن ظهور الإنسان الأعلى الذي هو ليس إنسان وسيحتقر الإنسان، الذي سيموت مع ميشال فوكو، والأخير عمل على إماتة الإنسان من خلال منهج الأركيولوجيا التي هي عبارة مجازية وليست كما هي في أصلها، وبتعبير آخر هي إشارة وليست عبارة، لأن العبارة في أصلها تشير إلى علم الآثار، الذي يبحث في بقايا الحضارات السابقة بغية فهم نمط معيشتهم وتطور تاريخهم والكشف عن حقائق الروايات التاريخية، فوكو يناهض نفسه عن هذا المفهوم لأنه يرفض التحاليل التاريخية والسياقية والتي هي بتعبير البنيويين المفاهيم التتابعية. وعليه فالأركيولوجيا عنده تشير إلى أنها البحث في الشروط والقواعد والقوانين التي تسمح بفكر معين أو ثقافة ما أن توجد» وعليه فهي منهج يقف عند التزامن بشكل راديكالي.

وهو منهج يبحث في لا شعور المعرفة العلمية، أي أنه منهج يرغب في الغوص في أغوار المؤسسات الثقافية والاجتماعية بغية الوصول إلى جمع ما يظهر على أنه شتات، وبغيته للشتات هو بلوغ ما يسميه بالابستيمي، وهي جملة الشروط التي تحكم فكر عصر معين، وهو هنا يكون قد قاد البنيوية إلى مآلها.

هدف هذا المنهج هو تفكيك العلوم الإنسانية، التي لا يعدها أصلاً علماً بل فكراً وعندما يذكرها يضعها بين قوسين، وهذا كله حتى يهدم أهم مقولتين للحداثة وهي: الإنسان والتاريخ، فكلاهما قام عليهما التنوير الأوروبي، فالإنسان كان بديلاً عن الإله، والتاريخ هو مجال تحقيق التقدم، وعليه فتفكيكهما يؤول إلى تفكيك

الحدثاء وهو الوجه الأول من فلسفة الاختلاف.

في تفكيك مقولة الإنسان، ذهب ميشال فوكو إلى أن مقولة الإنسان وهم؛ وهي اختراع حديث ليس له إلا مئتي سنة؛ أي أنها اختراع في القرن 19م، حيث إن العصر الذي قبله كان انشغال الفكر بتمثل الوجود والإله وقوانين الطبيعة، ومع ديكرات، أو العصر الكلاسيكي منع من التفكير في الإنسان لأن انشغاله كان حول تطابق الذات مع الموضوع في عملية إنتاج المعرفة، ثم سرعان ما بدأ يظهر أن التطابق وهم، فظهر كانط، الذي بدأ يبحث في الذات المفكرة لا في التطابق؛ ليكشف حدودها، وهنا بدأ تحويل الإنسان إلى موضوع، حيث أصبح الإنسان هو الذات الواعية التي تدرس ذاتها، فالإنسان هو ذاته موضوع، والدراسة في الآن نفسه.

وهذه الابستيمي التي ترعى في الإنسان ذاتاً واعيةً تصنع تاريخها وتتحكم فيه،

انهارت أمام ثلاث ضربات، وهي:

- اللسانيات البنيوية، والتي أظهرت أن الإنسان ما هو إلا نتاج لعلاقة وليس سيذا، وهذه العلاقة تصنعها اللغة.

- اللاشعور والتحليل النفسي: وهنا كسر غرور الإنسان عندما اكتشف أنه كائن غير واع.

- الإثنولوجيا: التي بينت أن الإنسان له تاريخ عميق لا يعرفه ويتحكم فيه، لا هو الذي يتحكم في هذا التاريخ.

وكل هذه الضربات أدت إلى اختفاء الإنسان كسيد وأظهرت العناصر الخفية التي تتحكم فيه وتجعله موضوعاً من الموضوعات، وحلت محله اللغة.

وأما التاريخ فهو المجال الذي حلمت فيه النزعة الإنسانية بتحرر الإنسان، وأنه حركة متواصلة لتحقيق الذات، وهذا ما يرفضه فوكو، فالتاريخ ما هو إلا انقطاعات، وكل قطعة مستقلة بذاتها أي هو لحظات منقطعة لا يربطها رابط، وعليه يكون قد حقق الاختلاف من زاوية الكشف عن اللامفكر فيه والمهمش وهو اللاشعور، وكذلك في تقويضه لفلسفات الذات وغرورها من خلال تفكيك مقولة الإنسان والتاريخ بوصفه أمل تلك الذات، ولكنه سرعان ما اكتشف أنه لا يزال يعيش أزمت الحداثة، فالإبستيمي ما هي إلا لغوس للغوس، وهو أدى به في كتاباته المتأخرة إلى الاستغناء عنها.

الإنسان الغربي المعاصر بين تيه الزمن والطغيان على المكان

بعد أن قطع علاقته بالسَّماء، ولم يعد لعالم الملكوت ما يربطه به؛ بل قيمة يصنعها بنفسه، وهو الأمر النَّاهي، ولم يعد للهدى الإلهي مكانة في إدارة شؤون الحياة الاجتماعيَّة، أصبح الإنسان المعاصر يعيش في ضيق عالم الملك، وهذا الأخير يتركب من بُعْدَيْنِ أساسيين، الزمان والمكان، وفيه استخلف الله الإنسان، إلا أن الإنسان المعاصر قطع الصَّلَّة، فزادت أزمته أكثر فأكثر، بعدما عبث بُعْدَي: الزمان، والمكان وعاث، فيهما فسادًا.

نتيجة للتقنية، أصبح للإنسان نصيبٌ من التحكُّم في الزمن، وهو ما زاد أزمته من الاغتراب إلى تدمير عالمه الَّذِي يرتدُّ بالدُّمار عليه. وهنا، سنناقش نوعين من الزمن، الأول الزمن التاريخي، الَّذِي يُحدِّد جملة الأحداث، والزمن الاجتماعي وتغيراته. ويمثل الزمن التاريخي العداة للتاريخ من خلال مصطلحات عدَّة، أهمُّها: نهاية التاريخ، والآخر: يمثله الزمن الاجتماعي من خلال مسألة التَّسارع التي طرحها كل من ماكس فيبر، وألكسندر كوجيف، وأصبحت موضوعًا رئيسًا للمُفكر الاجتماعي هارتموت روزا.

1. نهاية التاريخ وقتل الإمكانات الإنسانيَّة:

أمَّا عن الزمن التاريخي، فقد انتقل من حالة التفكير بوصفه حركة تقدُّم، الَّذِي يسير نحو سعادة الإنسان، عندما يتخلَّص من مجمل العوائق التي تحول دون تطوُّره، وخاصَّة منها الدين، إلى أطروحة كوندورسييه ثم أوغست كونت، عن الزمن الَّذِي يبدأ بقطع صلته مع عالم الملكوت. وعلى الرِّغم من محاولة هيغل استعادة الرابطة إلا أن كسرهما جاء عن طريق اليسار الهيجلي مُمثلاً في فيورباخ، وكارل ماركس الَّذِي حوَّل التاريخ إلى حالة من الطَّبيعة محكوم بقوانين مادِّيَّة حتميَّة خاصَّة في كتابه الأيديولوجيَّة الألمانيَّة، منطلقًا من أساسيات الوجود الطَّبيعي للإنسان ومنها: يختزل الإنسان دون أن يرى لأبعاده الأخرى وجودًا جوهريًا. وقد تصوَّر ماركس أن التاريخ سيمر بمراحل عدَّة، الأولى المشاعيَّة، والتي يكون فيها الإنسان خارج التاريخ، حيث لا صراع وجدال، ثم تبدأ مرحلة العبوديَّة التي فيها تبدأ الملكيَّة بالظهور، وذلك نتيجة لانتساع سُكان البشريَّة، وشحِّ موارد الطَّبيعة، وهنا تظهر الأسرة والملكیَّة بوصفهما مُقومين أساسيين في إنتاج حركة التاريخ، ويبدأ المجتمع في الانقسام بين مالك لوسائل الإنتاج وتتركز الثروة لديه، وفقير لا

يملك حتى نفسه، وعند ذلك الانقسام الحادّ، أو التناقض سيثور العبيد على السادة، وندخل في مرحلة جديدة، وهي الإقطاع وبعدها البرجوازية، وقد بشر بالاشتراكية بوصفها مدخلاً إلى الشيوعية التي سينتهي فيها التناقض، وتعود المجتمعات إلى حالتها الأولى من المشاعية.

هنا يظهر مصطلح «نهاية التاريخ»، الذي على الرغم من أنّ ماركس لم يذكره؛ بل أطلقه على فلسفته عبد الوهاب المسيري في أطروحته للدكتوراة، ثمّ فرنسيس فوكوياما، والفارق بينهما أنّ المسيري استعمله بوصفه أداةً نقديةً، وليس بصدد تقرير حقيقة ما. لهذا، سنستعين بالمسيري؛ لأنّ تصوّره شامل لكلّ التصورات حول نهاية التاريخ.

ينطلق المسيري من تصوّره لطبيعة الذات البشريّة، من حيث إنّها مُركبةٌ بالغة التعقيد؛ ما يمنحها القدرة على تجاوز الأبعاد المادّية، وأصول ذلك التركيب يُردّ إلى كون الإنسان كائنًا مُتصلاً بعالم الملكوت؛ أي أنّ له بُعداً ربّانيّاً كما له بعد طبيعيّ مادّي، ونهاية التاريخ ما هي إلا تحطيم وتدمير لذلك التركيب. ويستدلّ على العلاقة بين فكرة نهاية التاريخ، وتفكيك إنسانيّة الإنسان من خلال الرّبط بين النازية، والصّهيونية، والنظام العالمي الجديد، والاستنساخ. إنّ الرابط بينها هو نهاية التاريخ. وهذا الأخير هو تعبير عن إمكانية الإنسان على تجاوز الواقع، وإنتاج شكل أحاديّ البعد، وهو ما عبّر عنه المسيري قائلاً: «العنصر المشترك هو محاولة إلغاء الزمان والتاريخ وتصفية التركيب، وإنكار مقدرة الإنسان على تجاوز واقعه»¹. وهنا، سنلحظ عدّة آليات ستعمل من خلالها فكرة نهاية التاريخ على تدمير الإنسان، مع العلم أنّها فكرة تقوم على فصل التاريخ عن الفعل الإلهي؛ بقصد إحلال مطلق داخل التاريخ لينتهي هذا المطلق إلى إلغاء التاريخ، وهنا ستعمل نهاية التاريخ إمّا على البطش بكلّ ما هو مخالف، أو إعادة إدماجه وتنميته ضمن أطر مُحدّدة من طرف الطاغية، وخير مثال على ذلك النازية والصّهيونية، وحتى الاستنساخ، فهي تنميّط الإنسان، وتقضي - في الآن نفسه - على أيّ شكلٍ من أشكال التنوّع، والمُعَايرة، والاختلاف.

من خلال السّعي نحو تنميّط الإنسان، يمكن أنْ نكشف عن أشكال ذات

1- عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادّية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، 2010م،

الإنسان التي يُراد صنعها، وهي على النحو الآتي: الإنسان الاقتصادي؛ وهو إنسان همّه الأكبر هو المال، وهنا تظهر كل أشكال التطفيل، وإبخاس الميزان، والرّبا، وغيرها من الانتهازيّات التي تُكرّس منطق الاستغلال باسم التنمية الاقتصاديّة وما إلى ذلك، حيث يصبح الإنسان الاقتصادي لا يهتم سوى بالأرقام وارتفاعها لا بإنسانيّة الإنسان، والأخلاقيات العُليا، فكل ما هنالك هو المال المطلق الذي يغترب فيه الإنسان. وقد تطوّر ذلك النمط إلى أنموذج آخر وهو إنسان الإسراف، والذي يسرف في التبذير والبذخ، وهو إنسان استهلاكيّ إلهه هو السلعة لذات السلعة لا لأنها تفيده، أو تقضي حاجته؛ بل هو يتسوق لأجل المتعة فحسب، وهو لا يبالي لا بالطبيّعة، ولا بحجم الدمار الذي يلحقه بها نتيجة الإسراف الذي يُبدّد إمكاناتها ويدمرها. وأنموذج آخر وهو الإنسان الجنسيّ، الذي لا يهتم سوى بجسده، وإلهه هو المتعة الجنسيّة، التي لا تتوقّف فقط عند الممارسة الجنسيّة العاديّة؛ بل تتعداه إلى الممارسة المنحرفة والمرضيّة، كالمثليّة والمُتحوّلين من رجل إلى امرأة، أو امرأة إلى رجل، أو بين الرجل والمرأة، لا هي برجل ولا بامرأة، وتلك الأشكال يتم إنتاجها لغرض إنتاج إنسان مُنمط في نمط السلوك الجنسيّ البحت، وأشدّ تلك النماذج هو الإنسان المتجبر، وهو إنسان أسلحة الدمار الشامل، الذي لا يهتمّ إنتاج حرب عادلة بقدر ما يهتمّ البطش بالآخر بطش جبار، وهو يظهر في الهوس في إنتاج أسلحة ذات قدرة تدميريّة هائلة، هذا على مستوى العقول، أمّا على مستوى الفعل فتعمل الشركات الأمنيّة على إنتاج إنسان له قدرة قتاليّة عالية، لكنه إنسان خالٍ من القيمة الإنسانيّة، فهو لا يهدف إلى الحفاظ على الوطن، أو الدّفاع عن المستضعفين؛ بل هدفه القتال للقتال؛ لأنّه مُنمط على تلك الصورة؛ بل تزداد بشاعة تلك الصورة عند المقاتلين المرتزقة الذين يتمّ استخدامهم في الحرب، وعليه سواء على مستوى بناء كفاءات التخطيط العسكريّ، وبناء الأسلحة والعتاد في الحرب، أو الجنود، فقد تمّ إنتاج إنسان يبطشُ بطش جبار، إلهه القتل، وسفك الدماء.

تلك الأنماط الأربعة التي عملت الحضارة الغربيّة على إنتاجها هي مثل أدوات لإنهاء التاريخ، وخلق حالة من اللاتاريخ، وهي حالة يختفي فيها التنوع وتسيّد فيها النمطيّة، فتختفي الثقافات المحليّة والأديان وحتى اللغات، وتلك التتوّعات هي التي تخلق جدل التاريخ، سواء كان في صورة تصادمات، أو في شكل تعارف،

والأهم من كل ذلك أن التاريخ تحقيق للإمكانات الإنسانية، والتي لم تتحقق كلها، في حين أن التمنيظ هو إلغاء لتلك الإمكانيات، من خلال اختزال الإنسان في أحد تلك الأنماط لا غير.

تعمل الأنماط الأربعة مع بعضها بعضاً، إنسان البطش يؤمن الحماية لمشروع التمنيظ، وأما النماذج الأخرى فهي تجسيد للتمنيظ، ومن يقود ذلك الشكل هو القوى الرأسمالية الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، والأخيرة تملك ترسانة من الأسلحة مهيمنة على الاقتصاد العالمي، وهي أكبر منتج للأفلام الإباحية، وأكبر مُشجّع على الاقتصاد الاستهلاكي، وأكبر مُلوّث للطبيعة وغيرها، وناهيك عن الدفاع المُستमित عن المثلية، والأشكال المرضية من طرف تلك الدول.

أما عملية تسويغ تلك الممارسات فهو إنتاج ما يسمونه بفلسفات ما بعد الحدائث، أو فلسفات الاختلاف، ولقد سعت فلسفة الاختلاف إلى التركيز على المُهمّش، وهي الأبعاد المختلفة التي استبعدها اللغوس من ساحته، خاصة منها الأسطورة أو الميتوس، فاللغوس قام بتهميش عناصر كثيرة؛ بغرض السيطرة والهيمنة. لهذا، جاءت فلسفة الاختلاف لتحرير الفلسفة الغربية من هيمنة اللغوس، وذلك بالعروج على المُهمّش، وهنا تظهر موضوعات مُهمّشة، مثل: الجنون، والجنس مع فوكو، والكذب مع ديريدا، وغيرها.

إذن، لم تعد الموضوعات الكبرى لفلسفة الحدائث تستهوي ما بعد الحدائث، أو فلسفة الاختلاف؛ بل أصبح جلب اهتمام الموضوعات المُهمّشة، وهي نتيجة كذلك لموت الأنساق الكبرى التي تدّعي لنفسها القدرة على تفسير كل شيء، في حين هي أنساق صغرى تُفسّر قصصاً صغرى؛ بل لكل قصة ألعابها الخاصة بها. هي في الحقيقة فلسفة موت، ليس بالمعنى البيولوجي؛ وإنما بالمعنى المعرفي، من موت الإله لنيته، إلى موت الإنسان، وموت المؤلف لفوكو، وموت الواقع لجون بودريار وغيرها، وكلها تبشير بموت الحدائث، لكنّه موت في انتظار مُستمر للحياة؛ أي عصر فراغ بتعبير جيل لبوفتسكي.

كُمحصلة، هي فلسفة لا موضوع لها، ولكن كل مفردات الوجود الجزئية هي موضوعها، وهي فلسفة جاءت لتقوّض لغوس الحدائث، وتحرّر منه، وهذا التحرّر هو لأجل التحرّر من ظلال الإله؛ لأنها فلسفة تؤمن أن الإله بقي ثاوياً تحت عباءة

اللوعوس، حتى تفسح المجال للمُختلف والمُهمّش والمُتنوّع أن يُحدّثنا عن ذاته لكن أيّ مركزية، وهي بذلك فلسفة الصّيرورة التي لا تعرف ثباتاً ولا استقراراً؛ أي أنها فلسفة تُؤلّه الصّيرورة، وهي بذلك سفسطائيّ العصر؛ ما يسهل استخدامها لتسويغ كلّ الأنماط التي تحدّثنا عنها، من إنسان اقتصادي، إلى جنسي، إلى مُتجبر، بافتراض غياب المرجعية، والقُدرة على الحكم على الشّيء من خلال تفكيك كلّ المرجعيّات، والتي هي حالة سيولة دائمة حسب تعبير باومان. ولكن يبقى السُّؤال النقدي هل فعلاً حرّرت فلسفة الاختلاف أم هي تكريس ومآل واستمرار لأعراض الحداثة الغريبة؟

2. الزمن الاجتماعيّ والتّسارع وتفكيك إنسانيّة الإنسان:

إنّ الزّمن الذي بنته الحداثة لن يعيشه الإنسان بكلّ تركيبته، فعلى الرّغم من تغييره السّريع فهو أحاديّ البعد، زمن التّقدّم اللّانهائيّ، زمن يفقد الإنسان فيه هويّته، ويعجز عن بناء ذاته، وهو ما دعا «تود سلون» إلى القول: «في الأزمنة الحديثة، عندما نبلغ أشدنا يكون العالم الاجتماعيّ الذي شكّل أحلام الطفولة والصّبا قد تبدّل جذرياً بفعل التّغيّرات الاجتماعيّة والتقنيّة. فالعالم الفعليّ الذي تعلّمناه في صغرنا، أيّما كان وأينما كان لن يعود إلى الأبد. ومن ثمّ، يجري إعدادنا بوصفنا شباباً للعالم الخاطيء»¹؛ ما يعني أنّ التّغير السّريع أفرز اغتراباً للذّات، فطمّوحات الإنسان عندما يصل إليها يكون مُتأخراً؛ لأنّ الزمن تبدّل وأصبح ما يصنعه من ذاته لا ينتمي إلى هذا العالم ما يزيده غربةً على غربة.

قد ربّ تود سلون أزمة الحداثة ابتداءً من تسارع الزّمن، وهي على النّحو الآتي: إنّ التّغيير يمرُّ بوتيرة سريعة جداً؛ ما يؤول إلى نسبيّة مُطلقة ينتفي معها الثّابت والمُستقرّ فيحوّل العالم إلى حالة لا يقين، وإلى توقّع الأسوأ دائماً وفقدان الأمل، وكذلك انهيار الأخلاق، وموت المعنى من الحياة². وهنا، يفقد الإنسان أمام تلك المُتغيّرات هويّته، فالفلسفات الوجوديّة، التي أكّدت أنّ الوجود يتحقّق هناك، أصبحت غير قابلة للتّحقّق؛ لأنّ «هناك» أصبح غير موجود بفعل التّسارع.

1- تود سلون، حياة تالفة، ترجمة: عبد الله بن سعيد الشهري، ابن النّديم، الجزائر، 2021، ص 36-37.

2- المصدر نفسه، ص 32-33.

3. إنسان الطغيان وإهلاك الطبيعة:

منذ أن قرّر الإنسان الغربي أن يربط بين المعرفة والقوّة، بدأ يتسلّط على الطبيعة، وهذا ديكرت الذي قرّر أننا نحن أسياد الطبيعة ومالكها، فقد أعلن السيطرّة على الطبيعة، والفساد في ثقافة الإنسان الغربي؛ لأنّ الطبيعة هي المكان الذي سيصارعه بدلاً من أن تكون الطبيعة هي البيت الذي يأوي الإنسان. وقد حدّد ديكرت العلاقة بوصفها سيادةً مُطلقةً، وهي نتيجة ملكيّة مطلقة؛ ما يجعل الطبيعة مُجرّد وسيلة يمكن التّحكّم فيها، لا كيان قائم يستحقّ الاحترام.

لما جاء فلاسفة التنوير، فقد انتصروا إلى تصوّر الطبيعة بوصفها آلة ميكانيكيّة يمكن التّحكّم فيها والسيطرة عليها، وهنا تمّ تخلية الطبيعة من أيّ قداسة. ولذا؛ يجب أن نفهم دور القداسة في منع تدمير الطبيعة وإفسادها، ويجب أن أعرف القداسة بوصفها حرّيات الله التي تعبر مجال يتجلّى فيه الخالق سبحانه بأسمائه وصفاته، وهنا سيصبح للطبيعة مستويان؛ الأول: بوصفها ظاهرة لها قوانين مادّيّة، والطبيعة بوصفها آية دالة على الخالق، وبالربط بين الآية والظاهرة يحصل منع الإفساد؛ لكون الإنسان سيرى في الطبيعة كأنها يحوي على آية دالة على الله، وهي - في حدّ ذاتها - تجلّ لله، فمن أفسدها فقد عادى الله. ولهذا، فالمؤمن يحيي الطبيعة بغرض التّقرّب إلى الله.

لأنّ فلسفة التنوير قطعت العلاقة مع السّماء وعالم المَلَكوت، لم تعدّ الطبيعة سوى آلة كبيرة يمكن التّصرّف فيها بوصفها ظاهرة وليست آية، واختارها إلى ظاهرة ميكانيكيّة كبيرة، يؤول إلى الحقّ المُطلق في التّصرّف دون أيّ وازع أخلاقيّ، ولا حدود وموانع، فالطبيعة شيء نستهلكه ونُبذّه كيفما نشاء.

زيادة على ذلك، فقد أتت فكرة التّقدّم لتزيد الطينة بلّة، حيث صوّرت للإنسان الغربي أن سعادته هناك، وأنّ المعرفة ستقدّم له قوانين الطبيعة، وتقنيّة التّحكّم فيها، ولكونها منفصلة عن السّماء أنشأت ذاتاً مُتصخّمة تغزو العالم كيفما شاءت، دون أيّ حدود أخلاقيّة، ألغت معها العلمانيّة الضّمير الذي هو صوت السّماء، ليحلّ محله ذات متورّمة مُنتفخة مُتغطّسة، انتهت إلى دمار الطبيعة.

قد تجلّى ذلك الدمار في مستويات عدّة. تجلّى في الفلسفة البيئيّة، التي أخذت تؤكّد حجم الدمار الذي مسّ مستويات الطبيعة جميعاً، والذي يمكن تلخيصه في ثلاثة مصطلحات، وهي: الإخلال بالتوازن البيئي، ثمّ تبديد مُقدّرات

الطبيعة ، وأخطرها إفناء الطبيعة.

أ. الإخلال بالتوازن البيئي:

فقد كان من نتائج التصنيع تلوث الطبيعة على مستوى المياه، وكذلك الهواء، وهنا بدأ الحديث عن الاحتباس الحراري، وارتفاع درجات حرارة الكوكب، وثقب الأوزون، وانبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون، وكلها أدت إلى الإخلال بالتوازن الطبيعي، ناهيك عن انقراض بعض الكائنات التي كانت تحفظ للطبيعة توازنها، وتقلص من مساحات الغابات، وغيرها كثير.

ب. تبيد مقدرات الطبيعة:

إذا كان الإخلال بتوازن الطبيعة ناتج من التصنيع، فإن التبيد ناتج من الاستهلاك، فمنذ ظهور ما يُسمى بعصر العولمة الأمريكية انتشرت الثقافة الاستهلاكية، التي ولدت في الإنسان شهوة الاستهلاك الباحثة عن اللذة اللامتناهية؛ ما أدى الأمر إلى تبيد مقدرات الطبيعة، وبدأت عملية التبيد من الطاقة التي تنبع من أعماق الأرض، إلى المياه التي يتم تبيدها دون تدويرها، وإنهاك الطبيعة وإجهادها، وذلك الأمر بدأ مع الأراضي الزراعية التي تم تدميرها من خلال المواد الكيميائية، ناهيك عن المواد الزراعية الناتجة منها، والتي أصبحت تشكل خطراً على صحة الإنسان، وهنا امتد التبيد حتى على مستوى النبات والحيوان؛ ما يظهر أن التبيد قديم، مع تقدم الحضارة الغربية التي بدأ معها انقراض آلاف النبات، والحيوانات، والأشجار. وأما اليوم فقد سادت ثقافة التبيد بدلاً من التدوير.

ج. إفناء الطبيعة:

وموت الطبيعة جاء نتيجة حتمية لكل التقدم الصناعي؛ والأخطر هو موت الطبيعة البيولوجية التي في الإنسان، والتي أخذ يتهدها أخطار عدة، وهي: الاستنساخ، الذي يسعى إلى خلق الإنسان من جديد، وهو نتيجة ليس لتطور علم البيولوجيا؛ بل نتيجة لتطور التقنية البيولوجية، وكذلك الحروب البيولوجية من خلال استخدام فيروسات قاتلة يتم تعديلها جينياً، وهنا مكن الخطر؛ إذ تطور الأسلحة يُوحي بخطر مُدمر للطبيعة ككل، ولعل أهمها أسلحة الدمار الشامل.

هنا، نصل إلى أن أزمة الإنسان الغربي لها مظهرين؛ الأول: وهو الاغتراب وخسران الذات، والآخر: الطبيعة وإهلاكها، ومن ثم: المعادلة الحضارية التي وضعها مالك بن نبي المتمثلة في: إنسان + وقت + تراب = حضارة أصبحت

تساوي عملية تدمير الحضارة.

ليصبح شكلها على النحو الآتي :

إنسان + وقت + تراب = حضارة مُدمرة.

فعلى مستوى الإنسان، تمَّ خسران ذاته بفعل الاغتراب، وتمَّ وضعه في زمن اجتماعيٍّ يزيد خسراناً، وتاريخ يؤول إلى نهاية تقتل إمكاناته اللانهائية، وأماً التراب، ومقدّرات الطّبيعة فقد أدّت الثقافة الاستهلاكية والتصنيع وتقدّمهما إلى تبديدها وتدميرها، وهو ما يدعونا إلى ضرورة تشخيص جوهر الأزمة؛ لأنّ كلّ ما سبق هو مظهر الأزمة.

المدخل القرآنيّ لتشخيص أزمة الإنسان في الحضارة الغريبة

لقد سبق لدينا أنّ الحدائث الغريبة قامت على أساس قطع الصّلة مع السّماء، وهو ما أدّى إلى علمنة الحياة، والوجود، والفكر. وهنا، بدأ يحلّ محلّ الله إمّا الإنسان، أو الطّبيعة، وهذا ما يمكن تحليله في إطار المنظور القرآنيّ لتشخيص الأزمة الحقيقيّة المنتجة لكلّ أمراض الدّات الغريبة، سواء التي مسّت الإنسان، أم محيطه، كوّن هذا المنظور هو المؤسس للنّظر الإسلاميّ إلى العالم، وفيه معادلات كونية تعبّر عن سنن التاريخ، وهي مسارات في حركة الزمن، مبدأه يؤول إلى مآل محدّد. لهذا، نجد آيات السنن تُركّز على العاقبة من خلال الرّبط بين ثلاث عبارات، وهي: السّير - عاقبة - سنّة الله. ودليل ذلك في قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾¹.
- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾².
- ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾³.
- ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾⁴.

1- الآية 11، الأنعام/6.

2- الآية 69، النمل / 27.

3- الآية 38، الأحزاب/ 33.

4- الآية 23، الفتح/ 48.

• ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾¹.

كل هذه الآيات لها دلالة على حركة التاريخ، فهناك منطلق؛ أي مبتدأ له مآلات. لذلك، طلب القرآن النَّظْرَ إلى المآلات؛ لأنها دالة على منطلق، ومن المنطلق إلى المال هي سُنَّةٌ لَنْ تَتَّعَبِرَ، وتلك السُّنَنُ تنطبق على الحضارة الغريية. وهنا، سنستخلص آيتين قرآنيتين تُحدِّدان مسار الحداثة الغريية.

1. سُنَّةُ النَّسِيَانِ وَخُسْرَانِ الْإِنْسَانِ:

أول سُنَّةٍ تنطبق على الحداثة الغريية، والتي فيها خسر الإنسان نفسه هي سُنَّةُ نسيان الله، فبعد أن أقسم الله عز وجل بالعصر قرر أن الإنسان لا محالة في خُسْرٍ إلا الذين تواصوا على الصبر والإيمان، وفي آية أخرى يؤكد المولى جل جلاله معادلة وجودية تتلخص في الآية القرآنية، في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾².

ولتحليل مضمون هذه الآية يمكن أن نُحدِّد مفردات المعادلة وناتجها؛ أي السُّنَّةُ: نسيان الله + نسيان الإنسان = الفسوق

والفسوق هو الخروج عن أمر الله، وهنا يمكن أن نصيغ المعادلة بطريقة أخرى:

الفسوق عن أمر الله + نسيان الله = نسيان الإنسان

ولهذه المعادلة وجود حقيقي ضمن الحضارة الغريية، فمنذ أعلن نيتشه أن الإله مات أعلن فوكو أن الإنسان مات، وهو ما سيدفعنا للبحث عن أسباب ذلك الانتقال، من نسيان الإله إلى نسيان الإنسان.

بدلاً من البحث عن الإله الحقيقي، اتجهت الحداثة الغريية نحو نزع سُلْطَةِ الإله وإلغائها بشكل مُطْلَق، وهذا بقصد تحرير الإنسان من أي سُلْطَةِ تقمعه، لكن الذي حصل هو العكس تماماً، فقد خلق آلهة أخرى بديلة، وأولها الطَّبِيعَةُ التي يتقزم أمامها الإنسان ويموت، وعلى شاكلتها خلقوا آلهة أخرى، أهمها الدولة القومية التي عبر عنها هوبز بأنها إله، وأكد ذلك كارل سميث؛ ما يؤكد أنها تحولت إلى إله يستعبد الإنسان كما حصل في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، عندما تأهت الدولة، وخسر الإنسان ذاته أمام ذلك الوثن العظيم الذي خلقه. والأمر نفسه صنعه ماركس الذي استنسخ الطَّبِيعَةَ الإله

1- الآية 62، الأحزاب/ 33.

2- الآية 19، الحشر/ 59.

في البنية التَّحتِيَّة التي تحوَّلت إلى إله آخر يستعبد الإنسان، ثمَّ فرويد الذي صوَّر نفسه أنه أعظم من وجه صدمة إلى كبرياء الإنسان، الذي صوَّره ماركس بأنه كائن محكوم بحاجات مادِّيَّة، وداروين بأنه حيوان، أمَّا فرويد فصوَّره في أحطِّ الدَّرَكَات بوصفه كائنًا جنسيًّا، وامتدَّت عمليَّة خسران الإنسان لنفسه حتى وصلنا إلى حالة الطَّبِيعَة الصَّيرورة التي مات فيها الإنسان مع ميشال فوكو، ومع فلسفات ما بعد الحدثاء.

2. سُنَّة الاستغناء وإنتاج الطُّغيان:

وأما السُّنَّة الثَّانية فهي غطرسة الحدثاء التي انتهت إلى تدمير مُحيطها المُتمثل في الطَّبِيعَة والوقت في آن، فانعكس طُغيانه على ذاته، وفي الآية الكريمة دليل على هذه السُّنَّة، في قوله تعالى:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَنْ رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٢﴾ ﴾¹.

وفي هذه السورة تحديد لمعادلة مفادها:

إنسان + استغناء = طُغيان

وعليه، فالطُّغيان هو نتيجة عن تضخُّم الذات البشريَّة، والذي يتأتَّى عن استغنائها عن الله سبحانه، فالإنسان يستمدُّ قُدْرته بالارتباط بالله؛ ما يعني أنه لن يتصوَّر بأنه مُطلقُ القدرة؛ بل قدرته مشروطة بالله، وهذا الشرط سيمنع من تحوُّلها إلى طُغيان وطاقه إفساد في الأرض. وعليه، فالاستغناء هو نقض للشرط؛ ما يعني تضخُّم الأنا، وتحوُّلها إلى حالة فرعونِيَّة طاغية في الأرض. وهو ما ينطبق على الحدثاء العُربِيَّة، حيث إنَّ الإنسان استغنى عن الله بامتلاكه التقنيَّة، فبدأ يطغى على غيره من بني البشر بإنشاء أكبر حركة إمبرياليَّة في تاريخ الإنسانيَّة، والتي أسهمت في قتل ملايين البشر في القارتين الهنديتين، وفي أفريقيا وآسيا. وأسهم في تخريب الطَّبِيعَة في كلِّ مستوياتها، الطَّبِيعَة بوصفها نظامًا بيئيًّا قائمًا بذاته، أو الطَّبِيعَة بوصفها مادةً استعمالِيَّةً مُسَخَّرَة للإنسان. وعليه، فاستغناؤه حوَّله آلة طُغيان مُدمِّرة للوجود؛ بل بات ذلك الطُّغيان يُهدِّده في ذاته، من خلال أسلحته النَّوَوِيَّة، والهيدروجينيَّة، والبيولوجيَّة، والكيميائيَّة.

هنا، نصل إلى أن الآيتين آية نسيان الله آلت إلى نسيان الإنسان، وآية الطُّغيان آلت إلى إفساد في الأرض، وكلاهما تُعبِّران عن أزمة الإنسان الغربيِّ، إنسان نسي

ربّه فخر ذاته في ظلمات الاغتراب، وإنسان استغنى فدمر محيطه، وارتدّ عليه دماره ليخرجه.

خاتمة

وفقاً للتّحليل السّابق، إنّ أزمة الإنسان الغربيّ المُعمّمة عالمياً، تكمن أساساً في لحظة إطلاق الحداثة لمشروعها، التي أرادت أن تُزيلَ عن الإنسان القهر والقمع الذي فرض عليه من مؤسسات دينية، ففرضت عليه سلطتها عن طريق ترسيخ فكرة القصور الذاتي المتأّت من خطيئة أصليّة، وهنا جاء التنوير ليحرّر الإنسان من تلك السّلطة، وأدلّ دليل على ذلك ما قاله كانط في تعريفه للتنوير عندما رفع شعار: كن جريئاً في استخدام عقلك، وقد أدّت تلك الجرأة إلى الاستغناء ونسيان الإله، وهنا موضع التّأزم وأصله.

فالعقل الغربيّ كان مخيّراً بين أمرين: إمّا أن يبحث عن صورة الإله الحقيقي بدلاً من إله غضوب إلى صورة إله رحيم، أو التخلّص من فكرة الاله بالتدرّج؛ ما يؤول إلى نسيانه تماماً. وهنا المعضلة، فقد اختار الغرب في مؤسّساته الرّسميّة، وتشكيله الحضاريّ نسيان الله والاستغناء عنه، وهو ما أدّى إلى أزمتين خطيرتين، وهما: التمرّكز حول الطّبيعة، والأخيرة ليست بوصفها آية دالة على الله؛ بل بوصفها آلة كبيرة، تحكم العالم بقوانين كميّة رياضيّة آليّة متماسكة. وهكذا، تمّ نقل الألوهيّة من الله إلى الطّبيعة، ثمّ تمّ نقل الطّبيعة من عالمها الخاصّ بها إلى عالم الإنسان واختزاله فيه، فشكّل العقل الغربيّ صور تماثل الطّبيعة لتحكم حياة البشر، فمنها: الدولة، والتّقنيّة، والعقل، والتاريخ، واللذّة وهكذا دواليك، وكل تلك الآلهة خلقت أزمة للذات في الحداثة الغربيّة، والمتمثّلة في الاغتراب.

التمرّكز الآخر وهو حول الإنسان، الذي جعل لنفسه مركزاً داخل الكون، واثقاً من قدراته، وأخذت ذاته تتعاطم، وبدلاً من أن ترشد، غوت وانحرفت، فتعظّرت الإنسان، وسعت إلى التسيّد والسّيطرة على كل شيء، وبدلاً من تحقيق سعادة الإنسان، حوّلت عالمه إلى بؤس، واخترقت تاريخه وأرادت أن تنهيه، وتسارع زمنه الاجتماعيّ حتّى أصبح الإنسان لا يملك يقيناً، ولا خلقاً، ولا معنى، وأفسدت تلك الذات محيطه البيئيّ لدرجة أنّه بات قاب قوسين، أو أدنى من أن يدمّر الطّبيعة ومعها الإنسان. لقد استغنى الإنسان عن الله فطغى فأفسد ذاته ومحيطه.